الشـــاهد النحـــوي الشعـــري بين "المعيارية النحوية، والاستحقاق الشعري"

The Grammatical Poetic Evidence between Grammatical Standardization and Poetical Merit

أ.د. محمد أحمد غالب العامري

Prof. Mohammed Ahmed Ghaleb Al-Ameri

خلاصة

هذا البحث يتناول - بشيءٍ من التفصيل- القيَّم والوظائف المتحققة في الشاهد النحوي الشعري، وأثر بعضها على الآخر. وسيرتكز الحديث أكثر على القيَّم الشعرية الجمالية وجودًا وعدمًا في الشاهد النحوي الشعري، مع التعليل؛ ذلك أنَّ ثمة مشكلة كامنة في عدم تقبلنا - دون وعي غالبًا- إمكان حدوث الفصل بين الخصيصة الشعرية والوظيفة الاستشهادية في الشاهد النحوي الشعري؛ لأنَّ ذلك سيبدو لنا مخالفًا للأصل الأصيل لشعرية الشاهد/البيت التي ترسخت في أذهاننا ووعينا الجمعي.

فكانت هذه الدراسة محاولة لخلق توازن في طبيعة النظرة نحو الشاهد النحوي الشعري بين: «المعيَّاريَّة النحويَّة، والاستحقاق الشعري»

استخدم الباحث في هذا البحث المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي الاسترادي، والمنهج المقارن.

كلمات مفتاحية: الشاهد النحوي، المعيَّاريَّة النحويَّة، الاستحقاق الشعري، الوظيفة الاستشهادية، الجمال الفني.

Abstract

This research discusses, in some detail, the values and functions realized in the grammatical poetic evidence and their impact on each other. The discussion focuses mostly on the aesthetic values of poetry and their existence or non-existence in the grammatical poetic evidence. That also is justified in the study as there is an underlying problem in our failure to, often unconsciously, accept the possibility of separating the poetic characteristic and the evidential function in poetic grammatical evidence. That is because this would seem to us in contradiction to the established norm of the poetics of the evidence that has been burn into our minds and our collective consciousness. This study is, therefore, an attempt to create a balance in the nature of the view towards the poetic grammatical evidence between the "grammatical standardization" and the "poetic merit". The researcher uses the descriptive method, the historical retrospective method, and the comparative method.

Keywords: grammatical evidence, grammatical standardization, poetic merit, evidential function, aesthetic beauty.

مقدمة

بما أنَّ الشاهد النحوي الشعري معدودٌ في الشعر، ومحسوبٌ عليه؛ فيغدو متوقعًا أنَّ يُطلب منه ما تتحلَّى به أبيات الشعر السائرة الذائعة من: معنىً طريف ومثل شرود، وحكم سائرة، ومتعة للنفس، وخفة في السمع. وبما أنَّ الشواهد الشعرية النحويَّة تفتقد ذلك في مجملها؛ فكانت النتيجة أنَّ ارتسم في مخيِّلة كثيرين صورة سلبية عن شواهد النحو الشعرية، وتولَّد انطباعٌ يميل إلى النفور من الشاهد النحوي الشعري. وليتضح المقال سنسرد هذا المثال وإن كان طويلًا لكنَّه يصوِّر المشكلة، ويبرِّر لهذا البحث دراسة هذه القضية، جاء في كتاب ملتقى أهل اللغة: «العرب أمةٌ شاعرةٌ، من لم ينظم الشعر -منهم- لم يُعْدَمْ ذائقةً تميِّز جيِّده من رديئه، وصادقَه من كاذبه، قال: وأنا واحدٌ من هؤلاء المتذوقين، أقرأ ما تقع عليه عيني من شعر؛ مرَّةً ومرتين وثلاثًا، أردِّدها في نفسي مرَّات كثيرة، أخطب بها حينًا، وأتغنَّى بها حينًا، وأتمثَّل بها حينًا ثالثًا، وفي كلِّ مرة يظهر لي فيها شيءٌ جديد، وتنبجس منها مكامنُ إبداع لا أظنها مرَّت بخيال قائلها، ومن جرَّب ما جرَّبتُ سيدرك مغزى المتنبي حين قال: «ابن جني أعرف بشعري مني»[(١)]، وسيؤمن بنظرية موت المؤلف، وبأن القارئ مبدعٌ آخر ...

هكذا حالي مع الشعر، وأما شواهد النحويين فلي معها حالٌ أخرى؛ إذ استعصت هذه الشواهد على ذائقتي، ولم يكن شعرٌ أسمج في عيني منها، وكم شحذت ذاكرتي لتجود عليَّ بالشاهد في الامتحان بلا جدوى، مع أنني ردَّدته عشرات المرات قبل الدخول إلى القاعة، هذا مع أنَّ ما يستهويني من الشعر ينثال من الذاكرة إذا دعوته كما تنثال الأحبار على يابس الأسفار.

وبالأمس القريب كنت أتصفَّح أحد الكتب الأدبية فمرَّت عليَّ أبياتٌ للشاعر سنان بن الفحل يشكو فيها ظلم أبناء عمومته له وانتزاعِهم بئرَه منه عنوةً،

(١) . الصالح، صبحي إبراهيم، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط١، ص٦١.

وقد أعجبتني تلك الأبيات غاية الإعجاب؛ لما فيها من عاطفة جياشة وتعبير صادق عن الإحساس بالقهر والظلم، بلغ بالشاعر حدَّ أنَّ ينسف القِيَم العربية التي تدعو إلى التجلُّد أمام الشامتين، ويعترفَ صراحةً بارتكاب جريمة البكاء!! تأمل في هذه الأبيات(١):

وقالوا قد جُنِنْتَ فقلتُ كلاَّ ... وربِّي ما جُنِنْتُ وما انْتَشَيْتُ
ولكنِّي ظُلِمْتُ فَكدتُ أَبْكِي ... من الظُّلْم المُبَيَّن أو بَكَيْتُ
فإنَّ الماءَ ماءُ أبِي وجَدِّي ...وبِئْري ذو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

هل رأيتم البيت الأخير؟ إنه عينه الشاهدُ النحوي الذي تعرفونه في (ذو) الطائية.

فيا لله ما أثقله هناك، وما أجمله هنا! وما أجمل الأشياء داخل سياقاتها! وما أقبحها حين تنتزع منها!»(٢).

وعليه فهذا البحث يهدف إلى:

- بيان مكانة الشاهد النحوي الشعري.
- إيضاح معايير اختيار الشاهد النحوي الشعري.
- مناقشة تأثير المعيَّاريَّة النحويَّة على القيمة الجمالية للشاهد الشعري.

وتتحدَّد مشكلة البحث بالسؤال الآتي: ما أثر المعياريَّة النحويَّة على القيَّم الفنيَّة الجماليَّة في الشواهد النحويَّة الشعريَّة؟

وحدود البحث هي: الشواهد النحويَّة الشعريَّة.

وميدان هذا البحث: كتاب سيبويه، وشذور الذهب لابن هشام، والنحو الوافي لعباس حسن، وسنقتصر منها على عينات شبه قصدية.

واستخدم هذا البحث، مناهج عدة، هي: المنهج الوصفي، والمنهج

---

(١) . المرزوقي(المتوفى: ٤٢١ هـ)، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص٤٢٠- ٤٢١.

(٢) . كتاب ملتقى أهل اللغة،٧/ ١٧٠، تم تحميله في: رمضان ١٤٣٥ هـ = يوليو ٢٠١٤ م، على الموقع: http://ahlalloghah.com.

التاريخي الاسترادادي، والمنهج المقارن.

ولا أعلم دراسات سابقةً تناولت الجانب الفني في الشاهد النحوي الشعري. أما ما كتب عن الشواهد النحويَّة، وألَّف فيها فكثيرٌ، من ذلك: شرح أبيات سيبويه للسيرافي (ت ٣٨٥هـ)، وإيضاح شواهد الإيضاح لأبي علي حسن بن عبد الله القيسي (ت في القرن السادس الهجري)، وتخليص الشواهد وتلخيص الفوائد لا بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١ هـ)، والمقاصد النحويَّة في شرح شواهد شروح الألفية لبدر الدين محمود العيني (ت ٨٥٥ هـ)، وشرح شواهد المغني لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ). وفي عصرنا الحديث المعجم المفصل في شواهد العربية لإميل بديع يعقوب، وشرح الشواهد الشعرية في أمهات الكتب النحويَّة «لأربعة آلاف شاهد شعري» لمحمد بن محمد حسن شُرَّاب.

مصطلحات البحث الإجرائية:

المعيَّاريَّة النحويَّة: ما يناط بالشاهد النحوي من: وظيفة، ومعايير اختيار.

الاستحقاق الشعري: ما يُفترض تحققه في الشعر من قيم جمالية.

ينصب هذا البحث - بعد التمهيد- في محاور ثلاثة، هي:

المحور الأول: معايير اختيار الشاهد النحوي الشعري.

المحور الثاني: القيمة الثبوتية للشاهد النحوي الشعري.

المحور الثالث: القيم الجمالية في الشاهد النحوي الشعري.

تمهيد

للشعر مكانةٌ كبيرةٌ في نفوس العرب في تاريخهم الطويل، ونال منهم حيِّزًا كبيرًا من الاهتمام، وتعددت صور ذلك الاهتمام وتغايرت من عصر لآخر انبثاقًا من طبيعة الوظيفة التي يؤديها الشعر، فقد سُجِّل للجاهليين احتفاؤهم واحتفالهم بنبوغ شاعر منهم، وحرصهم على حفظ شعره وروايته جيلًا بعد جيل(١)؛ لأنَّه سجل آثارهم ويحمل مفاخرهم، لا يملون من هذا ولا يسأمون(٢):

ألْهى بني تغلب عن كلِّ مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرُو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم

وإن كان المعنيُ هنا بني تغلب، لكنَّهم ليسوا وحدهم أصحاب هذا الصنيع مع شعر شعرائهم، فكل العرب فيه بنو تغلب.

وحين جاء عصر تدوين العلوم العربية والإسلامية، برز للشعر قيمةٌ كبرى وأهميةٌ عظمى لاسيما في علوم: التفسير والنحو واللغة، فالتفتت إليه عناية الرواة وأئمة علوم اللغة وعلوم الدين، وبذلت في سبيل جمعه وتمحيصه جهودهم، على نحوٍ أكبر من اهتمام الجاهليين؛ كيف لا وهو حجتهم الأساس التي لا تبارى، ودليلهم القوي الذي لا يجارى؟! لكن الرواة والعلماء يفترقون عن غيرهم في طبيعة الشعر الذي يشدونه، فالجاهليون -مثلًا- كانوا يتكئون على قوة تأثير الشعر وينشُدونها، والجمال من أبرز وسائل التأثير؛ فعلى مقدار تحقق ذلك لدى شاعرهم تتحقق لهم مآربهم، وتُشفَى صدورهم، أمَّا في عصر التدوين فهذان المعيَّاران: (الجمال، وقوة التأثير) وغيرهما من المعايير الشعريَّة الفنيَّة لم يبرز الحرص عليها عند رواة الشعر وأئمة اللغة؛ لاختلاف الغاية المنشودة من الشعر، والوظيفة المتغياة منه.

---

(١) . إسماعيل، عز الدين، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ص٥٩ .

(٢) . الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ٥٧/١١.

واستمرت العناية والاهتمام بالشواهد الشعرية بعد عصر التدوين حتى عصرنا الحاضر، وتعددت أوجه تناولها والعناية بها وتنوعت: إثباتًا ونفيًا، وتقوية وتضعيفًا، وشرحًا وإعرابًا، و.. وألِّفت فيها كتبٌ كثيرةٌ، لكنَّها تدور كلها حول الوظيفة الاستشهادية وما يتعلق بها، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما سبق ذكره في المقدمة.

المحور الأول : معايير اختيار الشاهد النحوي الشعري

كانت البصرة المدينة العلمية الأولى زمنيًا التي انبثقت منها علوم اللغة، قال أبو عبيدة: «أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي(ت٦٩هـ)، ثم ميمون الأقرن[١]، ثم عنبسة الفيل(ت ١٠٠هـ)..»[٢] وكلُّهم بصريون عاشوا في القرن الأول الهجري، وبعدها بنحو قرن من الزمن ظهرت مدرسة الكوفة[٣]. وبعد ذلك ظهرت المدارس: البغدادية، والأندلسية/المغربية، والشامية/المصرية، وكل هذه عيالٌ على المدرستين البصرية والكوفية. وعند التحقيق فالمدرسة الكوفية منبثقةٌ من المدرسة البصرية، ومؤسسوها الأوائل تلامذة للمدرسة البصرية، لكنَّها استقلت عنها، وأصبحت لها منافسة، وإياها مخالفة. وعنهما معًا أُخذت اللغة والنحو، وهما معًا أسهما في تحديد المعايير المتوخاة في الشاهد النحوي الشعري، وكانت المدرسة البصرية أكثر تشددًا، وكان صوتها أعلى وأثرها أظهر، وحضورها أكثر في اللاحقين.

هذا وتنحصر أبرز معايير العلماء لاختيارهم الشاهد النحوي الشعري في معيارين اثنين مجتمعين: معيار مكاني، وآخر زماني، وقد وقفنا معهما ملياً، وأشرنا إلى ما قد يكون لذلك من أثر في جمالية الشاهد، أو تأثره به.

---

(١) . لم أجد له تاريخ وفاة؛ ولعل تاريخ وفاته كانت بين تاريخي وفاة أستاذه أبي الأسود(٦٩هـ) وتلميذه عنبسة (١٠٠هـ).

(٢) . المزي، أبو الحجاج، (١٤٠٠ - ١٩٨٠) تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤/ ٣٠٦.

(٣) . مؤسسها الأبرز الكسائي (ت ١٨٩هـ).

أولًا: المعيار المكاني

حدده أئمة اللغة بمناطق سكنتها قبائل معينة، قالوا: « والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقْتُدي وعنهم أُخذَ اللسانُ العربيٌّ من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد؛ فإنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتَّصْريف، ثم هذيل وبعض كِنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»[(١)]. وهذه القبائل يجمعها معيارٌ مكانيٌ يتسم بالبعد عن مناطق الاختلاط بالعجم، قال السيوطي: «وبالجملة، فإنَّه لم يؤخذ عن حضَري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائرَ الأمم الذين حولهم»[(٢)]. وكان البَصْريون أكثرَ تمسُّكًا بهذه القائمة من الكوفيين؛ ولهذا كانوا يفتخرون بقولهم: «إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب، وأكَلة اليرابيع، وهؤلاء - يعنُون الكوفيين - أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ، وأكلة الشوارِيز»[(٣)]. وهو معيارٌ طبَّقوه حتى على الجاهليين القدامى، فثمت من أسقط الاحتجاج بشعر عدي بن زيد العبادي؛ قالوا لأنَّه سكن الحيرة قريبًا من مناطق العجم، وكذلك أبو دؤاد الإيادي، على الرغم من أنَّهما جاهليان قديمان، قال الأصمعي: عدي بن زيد وأبو دؤاد الإيادي لا تروي العرب أشعارهما؛ لأنَّ ألفاظهما ليست نجدية. وقال المرزباني: كان عدي بن زيد يسكن الحيرة، ويراكن الريف فلان لسانه وسهل منطقه»[(٤)]. قول المرزباني: (لأن لسانه وسهل منطقه) يقصد به الخشية من ضعف لغته وتأثره بغير الفصحاء، لكن تعبيره - بهذه الصورة السلبية- بهاتين العبارتين، بما تحملهما من دلالة إجمالية فيها غير قليل من دلالة عدم الاكتراث

(١) . السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، (١٤١٨هـ ١٩٩٨م) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٦٧/١.

(٢) . السيوطي، جلال الدين ،الاقتراح في أصول النحو، تحقيق عبد الحكيم عطية، دار البيروني، ط ٢، ٢٠٦م، ص٤٧.

(٣) . الأسد، ناصر الدين(١٩٨٨)، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٧، ص٤٣٤.

(٤) البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط٨، ٢٠٠٣، ص٤٧.

بالقيمة الفنيَّة، وغيابها عن اهتمامه بل عن مخيلته، وما الألفاظ إلا ترجمة للمكنون كما قيل.

ويظهر لنا أنَّ هذا المعيار المكاني لقي قبولًا وتسليمًا من أئمة اللغة قديمًا، وندر من شذَّ عنه، قال السيوطي: «ونقل ذلك أبو حيان في (شرح التسهيل) معترضًا على ابن مالك؛ لأنه عُنِيَ في كتبه بنقل لغة لخم وخزاعة وقضاعة وغيرهم، وقال: ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن»(١).

لكن في العصر الحديث تعدَّدت وتوسَّعت مساحة الرفض لذلك المعيَّار المكاني الصارم، يقول مهدي المخزومي: ولو كان مقياسُ الفصاحة هو الانعزالَ في كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجانب، لكانت لغةُ قريشٍ أبعدَ اللغات عن الفصاحة، ولا قائلَ بهذا»(٢).

وقد ذهب ابن خلدون إلى اعتماد مقياسٍ مكاني في تحديد الفصاحة فيه مغايرة لما سبق، ذلك هو: القرب أو البعد من قريشٍ، فقال: «كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصلحها؛ لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف، و... وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصّحّة والفساد»(٣). وابن خلدون في هذا الرأي أقلَّ دقة من السابقين؛ فقريش من أكثر العرب اختلاطًا بغيرهم، فهم أهل رحلتي الشتاء والصيف إلى بلادٍ ليست في عداد الفصاحة، وبلدهم مكة منطقة جذب واختلاط لسائر قبائل العرب فصيحها وغير فصيحها، وهي منطقةٌ تجاريةٌ نشطةٌ، وفيها كثيرٌ من رقيق العجم، وعلاقة طائفة من أبنائها بالحبشة معروفةٌ وأسفارهم إليها مذكورةٌ، ثم إنَّها ليست من القبائل المعتمدة في أقوال الأئمة، كما في قول السيوطي السالف: (والذين عنهم نُقلت اللغة العربية...)، فجُل تلك القبائل نجدية، والمتحيِّز للحجاز ذيَّل كلامه بهوازن وبعض كنانة،

(١) السيوطي، الاقتراح. ص٤٨.

(٢) المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة النحو ، دار مكتبة الهلال ، ص ٥٥- ٥٦.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، دار العرب ،ط١ ،ص٦٢٦، ٦٢٥.

وقريش من كنانة، وسينصرف وصف (بعض كنانة) لبواديها لا لحاضرتها (مكة). وإن صحَّ رأي ابن خلدون، فهو ينطبق على لغة قريش عند نزول القرآن، أما في عصر التدوين فلا خلاف أنَّ مكة خرجت من معيار القبول الاحتجاجي؛ لكثرة من غشيها من الأعاجم والمولدين.

ثانيًا: المعيَّار الزماني

يمتدّ من الجاهلية إلى نهاية عصر الاحتجاج. والعلماء في هذا ما بين مضيِّق وموسِّع، ففي حين كان عبد الله بن أبي إسحاق والحسن البصري وأبو عمرو بن العلاء يلحِّنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم[١]، والأصمعي لا يحتج بشعر الكميت والطرماح؛ والسابقون كلهم شعراء أمويون، وعاشوا جلَّ حياتهم في القرن الأول الهجري؛ إذ كانوا يعدّونهم مولدين ليسوا بحجة[٢]، إذ نجد ابن الشجري يستشهد بكلام مَن يوثق به من المولدين المتأخرين عن السابقين أكثر من قرن، وممن ذهب هذا المذهب الزمخشري[٣]؛ فإنَّه استشهد بشعر أبي تمام(ت٢٣٢هـ) في مواضع عدَّة، وقال عنه: «وهو وإن كان محدَثًا..، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليلُ عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك بروايته وإتقانه»[٤].

وقد اختلف العلماء في تحديد نهاية عصر الاحتجاج في كل من البوادي والحواضر، فابن جني المتوفى(٣٩٢هـ) يحتج بأهل البادية في عصره، ويرى

---

(١) . ينظر: البغدادي، عبد القادر (ت ١٠٩٣هـ)،(١٤١٨هـ -١٩٩٧م) الخزانة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٦/١.

(٢) ينظر: الهروي، محمد بن علي أبو سهل (المتوفى: ٤٣٣هـ)، (١٤٢٠هـ)إسفار الفصيح، تحقيق أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١/ ٢٤٠.

(٣) . ينظر: ، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله المعروف بابن الشجري (المتوفى: ٥٤٢هـ)،(١٤١٣ هـ - ١٩٩١م) أمالي ابن الشجري، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، المقدمة ص١٠٢.

(٤) . شُرَّاب، محمد حسن، (١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م) شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحويَّة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠/١.

الأصمعي- ووافقه ابن الأعرابي أنَّ إبراهيم بن هَرْمَة[١] المتوفى (١٧٦هـ) هو آخر الحجج من أهل الحواضر[٢]، وهذا تقريباً رأي أكثر البصريين[٣]. وفي العصر الحديث اتخذ مجمعُ اللغة العربية بالقاهرة قرارًا في هذا الشأن، يفيد أنَّ «العربَ الذين يوثق بعربيَّتهم ويستشهد بكلامهم هم عربُ الأمصار إلى نهاية القرن الثاني، وأهل البدو من جزيرة العرب إلى أواسط القرن الرابع»[٤].

لكنَّ قول الأصمعي في ابن هرمة شاع ولقي قبولًا، وثمة من زعم الإجماع على كون ابن هرمة آخر من يحتج بشعرهم[٥]، لكن نرى عجلةً في هذا الحكم، فثمة آراء غير ذلك، بل نقل عن الأصمعي نفسه - وهو موئل ذلك الرأي ومصدره- قولان آخران غير ذلك، وأيًّا كان فقد شكل اعتماد ابن هرمة آخر الفصحاء الذين يحتج بشعرهم من أهل الحضر نقطة فارقة أكثر من كونها رأيًا فرديًا.

ومما يثير الانتباه أنَّ كثيرين ممن تناولوا قضية نهاية عصر الاحتجاج أطلقوا هذا الحكم ولم يقيدوه بالحاضرة، ويغفلون أنَّ يشيروا إلى استمرار الاستشهاد بشعراء البادية نحو قرنين؛ لعلَّ سبب ذلك قلة الاعتماد على شعراء البادية بعد عصر ابن هرمة: إما لتوقف الذهاب إلى البادية أو قلته؛ لاكتفاء العلماء بما قد تم جمعه منهم، أو لانتفاء الدافع: فاللغة قد استقرت قواعدها، والشعر القديم قد دوِّن أكثره، أو لتراجع الهمم وفتورها، أو لأنَّ جمهور الشعر انتقل من البادية إلى الحاضرة، فأصبح أكثر الشعراء وكبارهم

---

(١) إبراهيم بن هرمة (٨٠- ١٧٦هـ) أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن هرمة، شاعر مشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ذكر الأصمعي أنه رآه ينشد الشعر بين يدي الرشيد (تولى الخلافة ١٧٢هـ). اتفق ابن الأعرابي والأصمعي على أنَّ الشعر ختم بابن هرمة وبخمسة من معاصريه إلا أنَّ الأصمعي قدمه عليهم وكان يقول: ما يؤخره عن الفحول إلا قرب عهده. وقد تنقل بين المدينة ودمشق وبغداد يمدح الخلفاء. ودفن بالبقيع بالمدينة. له ديوان مطبوع.

(٢) ينظر: البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٠/٦.

(٣) ينظر: الحديثي، خديجة،(١٤٢٢هـ -٢٠٠١م) المدارس النحويَّة، مكتبة اللغة العربية، الاردن ط٣،ص ١٣٨.

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة المجلد الأول، ص٢٠٢.

(٥) ينظر: الأفغاني، سعيد بن محمد، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح، ص١٩.

حضريين ومولدين لا بدو.

ونتيجة لما سبق خلصنا إلى أنَّ من تناول قضية الاحتجاج بالشعر قسمه إلى طبقات: جاهلي وإسلامي ومولد، مع شيء من التفصيل. وما يحتج به منه الآتي:

الشعر الجاهلي.

مخضرم جاهلي/إسلامي.

الشعر الإسلامي.

الأموي.

مخضرم إسلامي/أموي.

مخضرم أموي/عباسي.

مجهول القائل، وهذا لا بد أنَّ يكون في حيِّز إحدى الحقب المذكورة، وهو في الغالب لا يكون إلا جاهليًا لأسباب تم ذكرها لاحقًا.

وقد يكون البيت الشعري متأخرًا عن عصر الاحتجاج، وهذا لا يورد للاستشهاد أو للاحتجاج، بل للتمثيل به فقط، وهذا في كتب الأقدمين غالبًا ما يكون لأحد شعراء أربعة هم: ١.أبو تمام . ٢. أبو نواس . ٣. البحتري. ٤.المتنبي؛ وذلك لذيوع شعرهم وانتشاره، وعلوقه في النفوس، وتسليم الناس لهم بالقبول.

أما احتمالنا كون الشواهد المجهولة القائل من الشعر الجاهلي- كما أسلفت - فذلك لأنَّ عصر تدوين النحو كان قريبًا من نهاية عصر الاحتجاج، بل إنَّ سيبويه في مطلع حياته عاصر بعضًا ممن اختلف في حجيَّة شعرهم من أهل الحواضر، واستشهد بشعر بعض من عاصره. وفائدة ذلك أنَّ جهالة قائل الشعر معناه أنه ليس من المعاصرين لعلماء النحو واللغة أو قريبًا من عصرهم، وإلا لعرف قائله، وينطبق الأمر على الشعر في العصر الأموي، أما شعر صدر الاسلام فحظه من استشهاد النحاة قليل، والشعراء الذين استشهد

بشعرهم محدودون ومشهورون، وجلهم مخضرمون.

هذا بالنسبة للمتقدمين من علماء النحو واللغة، أما المتأخرون منهم فإنَّهم لا يستشهدون إلا بما عرف مصدره وعلم قائله، وأنَّه ممن يحتج بشعره، أو بالشعر الذي احتج به النحاة السابقون ممن جهل قائله، أما تمثيلهم فقد يكون بأشعار معاصريهم أو من قبلهم.

ولكي نعرف نسبة تقريبية لتوزع الشواهد النحويَّة بين عصور الاحتجاج نأخذ عينة من كتاب أحد النحاة المتقدمين هو كتاب سيبويه، ومن كتاب شذور الذهب لابن هشام الانصاري من المتوسطين، ومن كتاب النحو الوافي لعباس حسن من المحدثين، بواقع اثني عشر شاهدًا متتابعًا من كل منها، ونبدأها بكتاب(١) سيبويه، وذلك بأخذ أول اثني عشر شاهدًا من أول الجزء الثاني منه، ثم بشذور الذهب(٢) بأخذ أول اثني عشر شاهدا منه، وبعدهما النحو الوافي(٣) بأخذ أول اثني عشر شاهدا من أول الجزء الثاني منه.

وقد تجنبت أخذ الشواهد من المجلد الأول حيث تعددت الأجزاء، وذلك في كتاب سيبويه وكتاب النحو الوافي؛ تجنبًا لتكرار الشواهد؛ ولأن حيِّزًا لا بأس به من بداية المجلد الأول لا يكون في صلب الموضوع غالبًا، وبالتالي سيتأخر فيها ورود الشواهد. أما شذور الذهب فهو مجلد واحد؛ فلم يكن ثمة محيص من اختيار الشواهد من أوله.

(١) ، سيبويه (ت ١٨٠هـ)(١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣.

(٢) ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، (١٤١٦هـ.١٩٩٥م)، شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت، ط١.

(٣) حسن، عباس(ت ١٣٩٨هـ)، النحو الوافي، دار المعارف، ط١٥.

م	١. كتاب سيبويه / المجلد الثاني	القائل	العصر	ص
١	فإلى ابن أمّ أناس أرحلُ ناقتي عمرو فتُبلغُ حاجتى أو تُزحفُ ملك إذا نَزَلَ الوفودُ ببابه ... عرَفوا مواردَ مُزبِد لا يُنزَفُ	بشر بن أبي خازم	جاهلي	٩
٢	فأصْبَحَ فى حيثُ الْتَقَيْنا شريدُهمْ طليقٌ ومكتوفُ اليدين ومُزعف	الفرزدق	أموي	١٠
٣	فلا تَجعلي ضيفَيّ ضيفٌ مُقرَّبٌ وآخرُ معزولٌ عن البيت جانبُ	العجير السلولي	أموي	١٠
٤	وكانتْ قُشَيرٌ شامتا بصَديقها ... وآخرَ مَرزيّا وآخرَ رازيا	النابغة الجعدى	مخضرم	١٠
٥	تَرى خلقَها نصفٌ قَناة قَويمةٌ ... ونصفٌ نَقاً يَرتجُّ أو يتمرْمرُ	ذو الرمة	أموي	١١
٦	يا مَيّ إنْ تَفقدي قوماً وَلدتهم أو تُخلَسيهم فإنّ الدهر خلاّسُ عمرٌو وعبدُ مَناف والذى عهدَتْ ببَطْنِ عرعرَ آبى الضَّيْم عباسُ	مالك بن خُويلد الخُناعي	جاهلي	١٥
٧	ولقد خبَطنَ بيوتَ يَشكُرَ خَبطةً ... أخوالُنا وهُمُ بنو الأعمام	المهلهل	جاهلي	١٦
٨	ورثتُ أبى أخلاقَه عاجلَ القرى وعَبطَ المَهاري كُومُها وشَبوبُها	الفرزدق	أموي	١٦
٩	وساقيَيْن مثل زيد وجُعَل ... سَقْيانِ مَمشوقان مَكنوزاً العَضَلْ	راجز	مجهول	١٧
١٠	وارتَشْنَ حين أردنَ أنَّ يَرمينا ... نَبلاً بلا ريش ولا بقِداحِ	ابن ميادة	أموي/ عباسي	٢٠
١١	حَمينَ العَراقيبَ العصا وتركنَه ... به نَفَسٌ عالٍ مُخالطُه بُهْرُ	الأخطل	أموي	٢١
١٢	لئن كنتَ في جُبّ ثَمانينَ قامةً ورُقّيتَ أسبابَ السماء بسلّم	الأعشى	جاهلي	٢٨

م	٢. شذور الذهب	القائل	العصر	ص
١	الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم	المتنبي	العباسي ٢	٣٩
٢	ما أنت بالحكم التُّرْضَى حكومتُه ولا الأصيل ولا ذي الرأي والحسب	الفرزدق	أموي	٤٠
٣	أَلَمَتْ فَحَيَّتْ ثم قامت فودعت فلما تَوَلَّتْ كادت النفسُ تَزْهَقُ	جعفربن علبة	أموي/ عباسي	٤٤
٤	نِعْمَتْ جزاءُ المتقين الجَنَّة دارُ الأماني والمُنَى والمِنَّة	مجهول	---	٤٥
٥	إذا قلتُ هاتي ناوليني تَمايَلَتْ عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ	امرؤ القيس	جاهلي	٤٦
٦	أيا جارتا ما أنْصَفَ الدهرُ بيننا تعالَيْ أُقاسِمْكِ الهُمومَ تَعالَيْ	ابو فراس	العباسي ٢	٤٧
٧	لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ يَلُوحُ كأنَّهُ خَلَلُ	كثير عزة	أموي	٤٩
٨	قالوا كلامُكَ هنداً وهي مُصْغِيَةٌ يَشْفيكَ قلتُ: صحيحٌ ذاكَ لو كانا	مجهول	---	٥٢
٩	لا يُعجِبَنك من خطيب خطبةٌ حتى يكونَ معَ الكلام أصيلاً أنَّ الكلامَ لفي الفؤادِ وإنما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دَليلاً	الاخطل	أموي	٥٣-٥٤
١٠	أشارتْ بطرفِ العينِ خِيفةَ أهلها إشارةَ مَحزونٍ ولمْ تَتَكلَّم فأيقنتُ أنَّ الطرفَ قدْ قالَ مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيبِ المُتَيَّم	عمر بن أبي ربيعة	أموي	٥٥
١١	فعاجُوا فَأَثْنُوا بالَّذي أَنْتَ أَهلُه وَلَو سَكتوا أثنتْ عَلَيْك الحقائب	نصيب	أموي	٥٦
١٢	يُذيبُ الرُّعب منه كل عَضْبٍ فلولا الغِمْدُ يُمْسِكُه لَسالا	المعري	العباسي٢	٦٣

م	٣. النحو الوافي/ المجلد الثاني	القائل	العصر	ص
١	رأيتُ لسانَ المرءِ وافدَ عقلِه وعنوانَه فانظرْ بماذا تُعَنون	علي بن بسام	العباسي٢	٦
٢	لا تَحْسَبَنّ الموتَ موتَ البِلي ... وإنما الموتُ سؤالُ الرجال	محمود الوراق	العباسي الأول	٧
٣	فلا تَعْدُد المولَى شريكَك في الغنى ولكنما المولَى شريكُكَ في العُدمِ	النعمان بن بشير	إسلامي أموي	٨
٤	قد كنت أحْجُو أبا عمْروٍ أخاً ثقةً حتى ألَمَّتْ بنا يوماً مُلِمَّاتُ	أبو شبل	العباسي الأول	٨
٥	اجعلْ شعارك رحمةً ومودةً ... إن القلوب مع المودة تُكْسَبُ	مجهول	...	٩
٦	يرى الجبناء أنَّ الجبن حزمٌ ... وتلك خديعة الطبع اللئيم	المتنبي	العباسي٢	١٢
٧	فإذا نظرت رأيت قوماً سادة ... وشجاعة، ومهابة، وكمالا	مجهول	...	١٥
٨	إنّ العرانين تلقاها محسَّدة ... ولن ترى للئام الناس حسَّادا	المغيرة بن حبناء	أموي	١٥
٩	ومن أنتمو؟ إنا نسينا من أنتمو وريحكمو من أي ريح الأعاصر	زياد الأعجم	أموي	٣٦
١٠	تَوَد عدوى ثم تَزعُم أنني ... صديقك إن الرأي عنك لعازب	العتابي/ النابغة الشيباني	أموي	٤٤
١١	جَدَّ الرحيل وحَثَّني صحْبي ... قالوا: الصباحَ فطيَّروا لُبِّي	بن أديم البزاز	العباسي الأول	٤٦
١٢	يقولون: طالَ الليل والليلُ لم يُطلْ ولكنّ من يشكو من الهمّ يسهر	الفرزدق	أموي	٤٧

يمكن إيجاز طبيعة الحضور الزمني للشواهد السابقة في الجدول الآتي:

العصر الكتاب	الجاهلي	جاهلي/ إسلامي	إسلامي	إسلامي/ أموي	أموي	أموي/ عباسي	عباسي أول	مجهول	بعد الاحتجاج
كتاب سيبويه	٤	١			٥	١		١	
شذور الذهب	١				٥	١		٢	٣
النحو الوافي				١	٤		٣	٢	٢
الإجمالي	٥	١	---	١	١٤	٢	٣	٥	٥

جدول يوضح نسب الإحصائية الزمنية للشواهد النحويَّة الشعرية

من خلال الإحصائية السابقة، نستنتج الآتي:

١. أنَّ حضور الشعر الجاهلي في مجال الاستشهاد يتراجع بمرور الزمن: فعلى حين كان الاستشهاد مقصورًا عليه ومحصورًا به دون سواه في الطبقات السابقة على سيبويه، كما هو شأن ابن أبي إسحاق(ت١١٧هـ)، وأبي عمرو بن العلاء(ت ١٥٦هـ) ومن في طبقتيهما، روى الأصمعي عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء قال: «جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج، فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامي»[١]. وتراجع الأمر عند سيبويه(ت ١٨٠هـ)، فأصبح نصيبه تقريبًا ١٢/٤، بل أصبح الشعر الأموي منافسًا متقدمًا عليه، بنسبة ٤/٥، وتراجع الأمر أكثر عند ابن هشام(ت٧٦١هـ)، بنسبة ١٢/١، ليغيب كلية عند عباس حسن(ت ١٣٩٨هـ)، ولعلَّ لهذا صلته بالجانب الفني؛ فالشعر الجاهلي أبعد زمنًا وأقلُّ في طبيعة الحلية الجمالية التي تميل إليها نفوس المتأخرين؛ لذلك استعاضوا بغيره عنه في الاستشهاد.

٢. الشاهد الشعري الأموي احتلَّ المرتبة الأولى في الكتب الثلاثة على اختلاف عصور مؤلفيها؛ ولعلَّ من أسباب ذلك ودلالاته ما يأتي:

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ٤٦٦/٣.

أ. كونه يجمع الأمرين معًا الجانب الاستشهادي، والجانب الفني، فبالتالي يلبي الرغبتين معًا: المتعة، والاستشهاد.

ب. الحضور الكبير للشعر الأموي في الساحة الشعرية العربية على امتداد عصورها، وفي ذلك شهادةٌ له بالأصالة والتميُّز، وهذا الأمر يكذِّب أصحاب مزاعم تبعية الشعر الأموي للشعر الجاهلي، ويدحض ادعاءاتهم.

٣. حرص النحاة العملي على الشاهد الأكثر صحةً؛ ففي حين يبالغون في قيمة الشعر الجاهلي في أقوالهم، نجدهم أكثر استشهادًا بالشعر الأموي؛ وما ذاك إلا لقوة ثقتهم بصحة مصدره، وانتفاء الشك حوله؛ لقربه من عصرهم، وشيوع روايته.

٤. غياب شعر صدر الإسلام عن ساحة الاستشهاد الشعري؛ وهذا يوحي بفداحة الإهمال الذي تعرَّض له من الرواة والنقلة والعلماء على حد سواء؛ نتج عن هذا الإهمال غيابه عن ساحة الاستشهاد في عصر بناء القواعد وعلوم اللغة، ولا تصح في هذا المضمار مزاعم ضعف شعر صدر الإسلام وتراجعه حتى يكون ذلك هو سبب غيابه عن ساحة الشواهد النحويَّة؛ فنصوصه الشعرية والنثرية ما زالت في عصر الاحتجاج، ولم تخرج عنه لتهجر، وليس الجمال الفني معيَّارًا في اختيار الشاهد حتى يقال إنَّ الضعف الفني المزعوم في شعر صدر الإسلام كان سبب تجاهل الاحتجاج به؛ فلم يبق من سبب في غياب شعر صدر الإسلام عن ساحة الاحتجاج النحوي إلا الإهمال الناتج عن الجهل به المتسبب عن عدم روايته ونقله[١].

٥. الحضور الباهت للشعر المخضرم (إسلامي/أموي) في ميدان الشواهد النحويَّة، ولا يحضرني تعليلٌ لذلك، أو ما يمكن استنتاجه من ذلك إلا ما قلناه عن شعر صدر الإسلام.

٦. قلة حظ الشعر المخضرم (أموي/عباسي)، وشعر العصر العباسي

(١) ناقش الباحث هذه القضية بتركيز وشمول في بحث بعنوان: أزمة شعر صدر الإسلام . . «قراءة أخرى» نشر في مجلة كلية الآداب - جامعة أسيوط، العدد (٣٦) أكتوبر ٢٠١٠م.

الأول؛ ولعل سبب ذلك الازدراء وطبيعة النظرة السلبية التي كان يحملها أئمة النحو واللغة الأوائل لشعر معاصريهم ومن اقترب من عصرهم، وهو ما كانوا يسمونه الشعر المولد والمحدث، والمعاصرة حجاب كما يقال، فقد كان ابن أبي إسحاق وأبو عمرو بن العلاء لا يستشهدون بالشعر الأموي البتة، ولا يرون فيه خيرًا فهذا أبو عمرو، وقد «سئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم»(١)، لكن تغيرت النظرة نحو الشعر الأموي فيما بعد، ونجا من آثار هذه النظرة، وكثر الاستشهاد به كما رأينا، ولم يُقدَّر لشعر العصر العباسي الأول وما اقترب منه أنَّ ينجو كثيرًا من آثار هذه النظرة لسببين فيما يرى الباحث:

الأول: لقربه من عصر التصنيف واستقرار الشواهد وتدوينها على أيدي أصحاب النظرة السلبية السابقة وتلامذتهم، فلم تتح له الفرصة الزمنية التي أتيحت لشعر العصر الأموي لتصحيح النظرة نحوه.

الثاني: اتصاله بحقبة انتهاء الاحتجاج.

٧. جاء بين أبيات الشواهد السابقة خمسة أبيات قيلت بعد عصر الاحتجاج، (٣) أبيات في شذور الذهب (للمتنبي، وأبي فراس، والمعري)، و(٢) في النحو الوافي (لابن بسام، والمتنبي). ومجيء الشعر مما قيل بعد عصر الاحتجاج، لا تُبنى عليه قاعدةٌ، ولا يثبت صواب رأي أو بطلانه؛ فهو ليس حجةً ولا يعد شاهدًا، فقط يورد للتمثيل والإيضاح، لكن إيراد بيتٍ دون غيره واختياره على ما عداه يعطينا بعض الإشارات، فهو لا يخلوا من دلالات عن طبيعة مُورِده، ومستوى ذوقه الفني وغير ذلك، على نحو أكثر من الأبيات التي يستشهد بها، فمجيء الشاهد غالبًا يكون ضرورةً لا مناص منها، أمَّا المتمثل فأمامه سعةٌ ولديه مندوحةٌ. ويمكن أنَّ نستنبط من أبيات التمثيل المشار إليها ما يأتي:

(١) القيرواني، ابن رشيق (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، طه، ١/٩٠-٩١.

أ. أنَّه لم يرد شيءٌ منها في كتاب سيبويه؛ لأنَّها مرحلة تأسيس وتقعيد فلا يذكر إلا ما كان حجة.

ب. أنَّ كلًا من أبيات التمثيل الخمسة يحمل قدرًا من الجمال الفني، فهي ليست كزة جافية، ولا غريبة حوشية.

ج. أنَّ ابن هشام كان أكثر توفيقًا في اختياره من الناحية الفنية، فأبياته أكثر جمالًا، وهذا يؤيد ما ذكرناه عنه سابقًا، ويدعم هذه النظرة أنَّه أكثر تمثلًا، فنسبة التمثيل من شواهده ٣ إلى١٢، بينما عباس حسن ٢ إلى ١٢.

د. أنَّ عباس حسن يميل إلى البيت الذي يحمل الحكمة، وهكذا تتباين أسباب الميول وعوامل الجذب والتأثير.

ه. أنَّ المتنبي أكثر حضورًا ممن عداه من الشعراء.

٨. بالنسبة للشواهد المجهولة القائل:

أ. ما ورد في كتاب سيبويه والكتب القديمة عمومًا من الشواهد الشعرية تطمئنّ النفس تمامًا إلى أنه مما يحتج به، فما كانوا يوردون غير ما يطمئنون إلى حجيته، وإن غاب عنهم قائله. ويترجح لدى الباحث كونه من الشعر الجاهلي؛ ذلك أنَّ علماء النحو الأوائل إذا اطمأنوا إلى كون الشاهد جاهليًا لا يهمهم بعد ذلك من قاله، ويكتفون بقولهم: وقال بعض العرب.

ب. في العصور اللاحقة وما بعدها إن جاء الشاهد مجهول القائل، فله حالتان: إما أنَّ يكون قد ورد في كتب السابقين، فينطبق عليه ما ذكرناه في النقطة السابقة تمامًا، وإما أنَّه لم يرد في كتب السابقين ولم يستشهد به أحدٌ منهم، فأعتقد أنَّه من الشعر الذي قيل بعد عصر الاحتجاج، وقد يكون من شعر معاصريهم أو قريبًا من عصرهم، وأورده صاحبه تمثلًا أو تمثيلًا لا استشهادًا.

من خلال إعادة النظر في الجدول السابق ثمة أمور أخرى تلفت الانتباه تجدر الإشارة إليها، منها:

١. أنَّ حضور الشاهد الشعري في كتب النحو يقل تدريجيًّا كلما تأخر عصر التأليف، يتبيَّن ذلك من خلال إحصاء عدد الشواهد مقارنة بعدد الصفحات، في العيِّنة التي أخذناها من الكتب الثلاث السابقة: ففي حين أورد سيبويه الشواهد السابقة الاثني عشر في تسع عشرة صفحة (من ٩-٢٨)، أوردها ابن هشام في أربع وعشرين صفحة (من ٣٩-٦٣)، وشغلت من النحو الوافي إحدى وأربعين صفحة (من ٦-٤٧).

٢. يقل اعتماد كتب النحو على الشاهد الشعري الجاهلي كلما تأخر عصر تأليفها، وهذا الأمر ظاهر من خلال نسبة حضوره في الشواهد السابقة، فقد ورد بالنسب الآتية: (٤: ١: لا شيء)، ولا أرى أنَّ للمعيَّاريَّة النحويَّة أو البعد الزمني أثرٌ في ذلك، فمدوَّنات أشعار الجاهليين أكثر حضورًا، ونالت من العلماء السابقين اهتماما أكبر؛ حتى أضحت أيسر تناولًا من مدونات من بعدهم؛ لذا أميل إلى أنَّ سبب ذلك يعود إلى التباين الذوقي.

٣. يحظى الشاهد الشعري الأموي بحضور متزن تقريبًا في كتب النحو مهما اختلف عصر التأليف، يتضح ذلك من خلال نسبة حضوره في الشواهد السابقة، التي وردت على النحو الآتي: (٥: ٥: ٤)؛ لعل ذلك يعود للحياة والحيوية التي اتسم بها الشعر الأموي؛ حتى أصبح يتلاءم مع الذائقة العربية في كل العصور على حد سواء.

١. أنَّ الفرزدق أكثر شاعر حظي شعره بالاستشهاد به، وهذا يصدق المقولة الشائعة: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب[١]»، وهذا أيضًا يعلل سبب تفضيل علماء اللغة والنحو له على جرير، خلافًا للبقية كأهل الأدب والبادية، وغيرهم الذين فضلوا جريرًا.

(١) . الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، (١٤٢٤هـ) الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٤٧٣/٤.

المحور الثاني : القيمة الثبوتية للشاهد النحوي الشعري

الشعر الذي تستشهد به كتب النحو - برأيي- أثبت الشعر صحةً، وأبعده من الانتحال، مع وجود الدواعي لذلك؛ فقد كان علماء النحو حريصين على تقصي ما يستشهدون به، وعلى التثبت من صحته؛ ودافعهم في ذلك أمور، منها:

١- معرفتهم أنَّهم يبنون على تلك الشواهد قواعد اللغة وأسسها؛ فلا بدَّ أنَّ تكون حجج ذلك وشواهده صحيحة ثابتة، على نحو كافٍ باعث للاطمئنان والتسليم.

٢- تعدَّد المدارس النحويَّة وشيوع الخلاف والتنافس بينها ساعد على تمحيص الشواهد، وجعل كل مدرسة تبذل قصارى جهدها في التثبت من مصدر الشاهد وصحة نسبته إلى قائله، كما أنَّهم كانوا يشيرون الى المصنوع ويحذرون من الاستشهاد به.

٣- من تسول له نفسه وضع شواهد لما يريد الاحتجاج له، فإنَّ المخالفين له لن يتركوه لذلك، بل يشهرون به، ويستهجنون صنيعه.

٤- صحة ثبوت الشاهد لا تكمن أهميتها فيه نفسه وحسب- وإن كان هذا هو ما يعني النحاة- بل ذلك يقود إلى صحة القصيدة التي كان منها هذا البيت، ويفتح عين القارئ والباحث على صاحبها وعلى مناسبة القصيدة، وعلى ما أثارته من تداعيات، إلى غير ذلك من الفوائد التي تند عن اهتمامات النحاة، وتفيد آخرين غيرهم، غير أنه يعود للنحاة فضيلة ذلك.

المحور الثالث: المعايير الفنية والجمالية

بما أنَّ الشواهد الشعرية في النحو قد حملت مسمى الشعر، وينسب كثير منها لشعراء مشهورين وكبار؛ فيغدو متوقعًا أنَّ تتسم بالجمال الفني وتتشح بالذوق الأدبي، لكن عند التتبع نجد أنَّ هذه الشواهد كثيرًا ما تفتقد الناحية الفنية الجمالية والقيمة الأدبية، أو يأتي ذلك فيها بنسبة قليلة؛ فالنحو مستفيد من هذه الشواهد أكثر مما الشعرية متجسدة فيها، فما يقصد المستشهد من الشاهد إلا إثبات القاعدة أو اللفظة التي قد تجافي الأدب غرابة وحوشية، ولا يلقي للذوق الشعري أو للجمال بالًا عندما يسطِّر شاهده، وما قد نجده من ملامح الجمال الأدبي وبعض السمات الفنية في بعض الشواهد، تأتي عرضًا من غير قصد ولا عناية؛ فإنَّها- وإن كانت منتقاة لغرض خاص- جزء من الشعر العربي.

ونرى أنَّه يمكن إيجاز أسباب ضعف القيم الجمالية في الشواهد النحويَّة، وصور ذلك في الأمور الآتية:

١. فقدان (الغاية) الجمالية في ساحة الاستشهاد النحوي الشعري، وعدم حضورها في ذهنيَّة المستشهِد؛ وانحصار غايته في زاوية الاستشهاد كيفما أتى، كما في الشاهد:

إنّي وأسطارٌ سُطِرْنَ سطرا ... لقائلٌ يا نصر نصر نصرا[(١)]

٢. النحو بطبعه علم قواعد وقوانين وأقيِّسة؛ فلا ننتظر فيما حواه من شواهد كبير طائل من معان أدبية، أو صور جميلة أو أخيلة، وعواطف جيَّاشة، أو رقة وسلاسة ووضوح ممتع.

٣. كون غالبية الشواهد أبياتا مفردةً؛ وقلَّ أنَّ يوحي البيت مفردًا بجمال القصيدة بكاملها، وفي ما ذكرناه في المقدمة عن الشاهد: «فإنَّ الماء ماء

(١) القيسي، أبو علي الحسن بن عبد الله (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) إيضاح شواهد الإيضاح دراسة وتحقيق: محمد بن حمود الدعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٣٤١/١.

أبي وجدي..» خير مثالٍ على ذلك. بل نجد طائفة منها أشطرًا مبتورة، كما في الشاهد: « ألا يا اسقياني قبل غارة سنجال»[١]، وقد يجمع إلى ذلك نقص التركيب وغموض في الألفاظ، كما في الشاهد: «من طلل كالأتحميّ انهجن»[٢] ففيه شبها جملة غاب متعلقهما، فجهلنا معه المراد، فضلًا عن أنَّ لفظي: (الأتحمي وأنهجن[٣]) لفظان معجميان فيهما غموض.

٤. عدم مبالاتهم بالاستشهاد بما هو سطحي اللغة، ساذج التركيب، بارد المعنى؛ طالما وهو يخدم القاعدة، نحو ما في الشاهد رقم (٧٦٤) في مغني اللبيب[٤]:

رجلان من مكة أخبرانا أنا رأينا رجلًا عريانا

٥. طائفة من الشواهد النحويَّة أبياتٌ جافة اللفظ غامضة المعنى، وذلك فيها شيء طبيعي؛ لأنَّ هذه الغرابة مقصودة لذاتها، وقد يكون إنما جيء به لإثبات ذلك.

٦. طبيعة الاستشهاد تقتضي أحيانًا إيراد التراكيب الشاذة أو الاستثنائية، فتكون باردة سامجة، كما في الشاهد[٥]:

وأنني حَوْثُما يُثْنِي الهوى بَصَري مِنْ حَوْثما سَلَكوا أَدْنو فَأَنْظُورُ

٧. كون طائفة من الشواهد من الرجز، وفي الرجز تكمن كثيرٌ من المآخذ السابقة: من غموضٍ في المعنى، وغرابةٍ في التركيب، وجفاف الألفاظ، كما في

---

(١) الجياني، محمد بن عبد الله ابن مالك الطائي(ت: ٦٧٢هـ)، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)شرح تسهيل الفوائد، تحقيق عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ٣/٢٤.

(٢) بكر الجذامي، محمد بن أبي المعروف بابن الصائغ (المتوفى: ٧٢٠هـ)، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، اللمحة في شرح الملحة، تحقيق إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١/١٥٨.

(٣) (الأَتْحميُّ): ضربٌ من البرود موشّى، شبه آثار الدّيار به، و(أَنْهَجَ): أَخْلَقَ وبلي.

(٤) الأنصاري، ابن هشام، (١٩٨٥)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د.مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، ط٦، ص٥٣٩.

(٥) الفارسيّ، أبو علي (المتوفى ٣٧٧ هـ)،(١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) المسائل الحلبيات، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - دار المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ص١١٣.

الشاهد[١]:

يا عجبًا لهذه الفَليقَه هل تذْهبَنّ القَوْبَاء الرّيقَه؟

٨. قصور الشاهد في دلالته على الناحية الموضوعية للنص؛ فالبيت الشعري وإن كان وحدة مستقلًا بذاته، لكنَّ موضوعه والمعنى المحتوي عليه لا يعطي القراءة الحقيقية للقصيدة، ولا يتجسد فيه غرض الشاعر الرئيس وقصده الذي رمى إليه، ولا نحس فيه بهمه المسيطر ودافعه الموجه، ويقترب أنَّ تنطبق عليه قاعدة: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميت[٢]»؛ لذلك ستقل فيه الجاذبية الفنية لجهالتنا بغرض الشاعر ومقصديته، وغموض المحرك والدافع له على إنتاج نصه.

وسنقف مع بعض الشواهد الشعرية، نحاول أنَّ نستنبط طبيعة الموضوع الذي يحمله كلٌ منها؛ لعلَّنا نستطيع أنَّ نحدِّد أو نجد شيئًا من المتعة الأدبيَّة، أو على الأقل نستطيع أنَّ نتبيَّن مقدار أو نسبة ما يحويه الشاهد الشعري- مستقلًا- من قيمة أدبية. وستكون عينتنا هي الشواهد الجاهلية في كتاب شذور الذهب لابن هشام؛ لأنه من وجهة نظري من أكثر أئمة النحاة ذوقًا أدبيًا في اختياره للشاهد الشعري، وسنطرح ما خفي فيه الغرض من البيت.

م	الشاهد	الغرض	قائله	رقمه
١	إذا قلت هاتي ناوليني تمايلت علي هضيم الكشح ريا المخلخل	غزل	امرؤ القيس	٥
٢	نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا	فخر	عبيد بن الأبرص	٢٢
٣	على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع	عتاب للنفس	النابغة	٢٥
٤	فلا لغو ولا تأثيم فيها وما فاهوا به أبداً مقيم	وصف	أمية بن أبي الصلت	٣٣

(١) المرادي، أبو محمد بدر الدين(ت ٧٤٩هـ)، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م) الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ، ص١٧٧.

(٢) هذا حديث نبوي شريف رواه ابن ماجه في سننه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٠٧٢/٢.وورد في سنن أبي دواد والترمذي والنسائي ومسند أحمد، وغيرها، وصححه الألباني.

م	الشاهد	الغرض	قائله	رقمه
٥	إذا قالت حذام فصدقوها فإنَّ القول ما قالت حذام	نصيحة/ مدح	دسيم بن طارق	٣٨
٦	ألم تروا إرماً وعاداً أودى بها الليل والنهار ومر دهر على وبار فهلكت جهرة وبار	وعظ وتذكير وطلب تأمل	الأعشى	٤٠
٧	أيا راكباً إما عرضت فبلغن ندامايَ من نجران ألا تلاقيا	رجاء/ حسرة	عبد يغوث	٥١
٨	وقصيدة تأتي الملوك غريبة قد قلتها ليقال من ذا قالها	فخر	الأعشى	٦٨
٩	نعم امرأً هرم لم تعر نائبة إلا وكان لمرتاع بها وزرا	مديح	زهير	٧٠
١٠	ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي	استنكار/ تعنيف	طرفة	٧١
١١	فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذروف الوليد المثقب	وصف	امرؤ القيس	٧٣
١٢	طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أنَّ ليس حين بقاء	فخر	أبو زيد الطائي	٩٦
١٣	فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل	غزل	امرؤ القيس	١٠٩
١٤	صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا	خمريات	عمرو بن كلثوم	١١١
١٥	لقد علم الضيف والمرملون إذا اغبر أفق وهبت شمالاً	تأبين	جنوب بنت العجلان	١١٢
١٦	فيها اثنتان وسبعون حلوبة سود كخافية الغراب الأسحم	وصف	عنترة	١١٩
١٧	وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي	وصف	امرؤ القيس	١٦٠
١٨	فلما دخلناه أضفنا ظهورنا إلى كل حاري جديد مشطب	وصف	امرؤ القيس	١٦٤
١٩	ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد	فخر	طرفة	١٦٨
٢٠	وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول: لا غائب مالي ولا حرم	مدح	زهير	١٧٥
٢١	تعلم شفاء النفس قهر عدوها فبالغ بلطف في التحيل والمكر	نصح وإرشاد	زيد بن سيار	١٨٤
٢٢	وقد علم الأقوام لو أنَّ حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر	فخر	حاتم الطائي	١٨٦
٢٣	ولقد نزلت فلا تظني غيره منى بمنزلة المحب المكرم	غزل	عنترة	١٩٦
٢٤	القاتلين الملك الحلاحلا خير معد حسبا ونائلاً	فخر/ تهديد	امرؤ القيس	٢٠٢
٢٥	كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل	هجاء	الأعشى	٢٠٥
٢٦	أخا الحرب لباساً إليها جلالها وليس بولاج الخوالف أعقلا	مدح	القلاخ بن حزن	٣٠٧
٢٧	فإنا وجدنا العرض أحوج ساعة إلى الصون من ريط يمان مسهم	حكمة	أوس بن حجر	٢٢١
٢٨	أنا ابن التارك البكري بشر عليه الطير ترقبه وقوعاً	فخر	المرار الفقعسي	٢٣٠

جدول يبين طبيعة الموضوع الشعري للشاهد النحوي

نظرة عامة في الشواهد السابقة لتلمُّس المستوى الجمالي فيها، يمكن أنَّ نخرج منها بالخلاصة الآتية:

- الأبيات رقم: (٢، ٤، ٦، ١٢، ١٥، ٢٤، ٢٦، ٢٨) وهي أكثر من ربع الأبيات تفتقد أي إشعاع جمالي، أو تكاد.

- فقط في الأبيات رقم: (٣، ٩، ١٣) نستروح إلى شيء من المتعة الأدبية، ويروقنا فيها وميض من الجمال الشعري.

- باقي الأبيات: مجملها إلى الضعف الفني أقرب منها إلى الجمال الشعري، وقد تتباين الرؤى في زوايا نظرها وطبيعة حكمها، لكن محصلة الحكم لن تختلف كثيرًا.

- لا نستطيع ربط مستوى الوجود الجمالي أو ضعفه أو عدمه بغرض ما، فلم نلحظ تميزًا في شواهد تنتمي لغرض ما؛ كما أنَّ اختيار المستشهد للشاهد يكون عشوائيًا في طبيعته الموضوعية.

الخاتمة وأهم النتائج:

يمكن إيجاز ذلك بالآتي:

١. تباينت صور الاهتمام بالنص الشعر تبعًا للوظيفة المأمولة منه.
٢. حظيت الشواهد النحويَّة الشعرية بعنايةٍ فائقةٍ وممتدةٍ: من القديم إلى الحديث.
٣. غياب أو ضعف الاهتمام بالقيمة الجمالية في الشاهد الشعري عند أئمة النحو.
٤. شكَّل اعتماد ابن هرمة آخر الفصحاء الذين يحتج بشعرهم من أهل الحضر نقطة فارقةً أكثر من كونها رأيًا فرديًا.
٥. بعد عصر الاحتجاج تحول جمهور الإبداع الشعري من البادية إلى الحاضرة، فأصبح أكثر الشعراء وكبارهم حضريين لا بدوًا.
٦. حضور الشعر الجاهلي في مجال الاستشهاد النحوي يتراجع بمرور الزمن؛ ولعل لهذا صلته بالذائقة الفنية التي تتعرض للتغير المستمر.
٧. الاعتماد على الشاهد الشعري في كتب النحو يقل تدريجيًا كلَّما تأخَّر عصر التأليف.
٨. حرص النحاة على الشاهد الشعري أعطاه مزيَّةً ثبوتيَّةً، وشيوع الاستشهاد به يعطيه قيمةً حضوريةً وبقاءً.
٩. النحو مستفيد من الشواهد الشعرية أكثر مما الشعرية متجسدة فيها.

قائمة المراجع

القرآن الكريم.
١.ابن خلدون، المقدمة ، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار العرب ،ط١.
٢.ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
٣.ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
٤.أحمد مختار، عبد الحميد عمر، (٢٠٠٣م)البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، ط٨.
٥.الأسد، ناصر الدين(١٩٨٨م)، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط٧.
٦.إسماعيل، عز الدين، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار النهضة العربية، بيروت.
٧.الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط-.
٨.الأفغاني، سعيد بن محمد، من تاريخ النحو العربي، مكتبة الفلاح.
٩.الأنصاري، ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، (١٤١٦هـ .١٩٩٥م)، شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت، ط١.
١٠. الأنصاري، ابن هشام، (١٩٨٥)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د.مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، ط٦.
١١. البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢. البغدادي، عبد القادر (ت ١٠٩٣هـ)،(١٤١٨هـ -١٩٩٧م) الخزانة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤.
١٣. الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، (١٤٢٤هـ) الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

١٤. الجذامي، محمد بن أبي المعروف بابن الصائغ (المتوفى: ٧٢٠هـ)، (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م)، اللمحة في شرح الملحة، تحقيق إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١.
١٥. الحديثي، خديجة،(١٤٢٢هـ -٢٠٠١م) المدارس النحويَّة، مكتبة اللغة العربية، الاردن ط٣.
١٦. حسن، عباس(ت ١٣٩٨هـ)، النحو الوافي، دار المعارف، ط١٥.
١٧. سيبويه(ت ١٨٠هـ)،(١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣.
١٨. السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، (١٤١٨هـ ١٩٩٨م) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
١٩. السيوطي ،الاقتراح في أصول النحو، تحقيق عبد الحكيم عطية، دار البيروني، ط ٢، ٢٠٦م.
٢٠. شُرَّاب، محمد حسن، (١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م) شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحويَّة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1.
١٢. الصالح، صبحي إبراهيم، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، ط١.
٢٢. ضياء الدين، أبو السعادات هبة الله المعروف بابن الشجري (المتوفى: ٥٤٢هـ)، (١٤١٣ هـ -١٩٩١م) أمالي ابن الشجري، تحقيق محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١.
٢٣. الطائي الجياني، محمد بن عبد الله ابن مالك (ت: ٦٧٢هـ)، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١.
٢٤. الفارسيّ، أبو علي (ت ٣٧٧ هـ)،(١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) المسائل الحلبيات، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - دار المنارة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١.

٢٥. القيرواني، ابن رشيق (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥.
٢٦. القيسي، أبو علي الحسن بن عبد الله، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) إيضاح شواهد الإيضاح دراسة وتحقيق: محمد بن حمود الدعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١.
٢٧. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المجلد الأول.
٢٨. المخزومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة النحو، دار مكتبة الهلال.
٢٩. المرادي، أبو محمد بدر الدين(ت ٧٤٩هـ)، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م) الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٣٠. المرزوقي (المتوفى: ٤٢١ هـ)، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) شرح ديوان الحماسة تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٣١. المزي، أبو الحجاج، (١٤٠٠-١٩٨٠) تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.
٣٢. ملتقى أهل اللغة،٧/ ١٧٠، تم تحميله في: رمضان ١٤٣٥ هـ = يوليو ٢٠١٤ م، على الموقع: http://ahlalloghah.com
٣٣. الهروي، محمد بن علي أبو سهل (المتوفى: ٤٣٣هـ)، (١٤٢٠هـ)إسفار الفصيح، تحقيق أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١.
٣٤. (setontooF)